

مفهوم الوسطية وضوابطها في القرآن الكريم

د/ فاروق بابكر محمد¹

الملخص

هدفت هذه الدراسة إلى الوقوف على الوسطية بوصفها ركيزة محورية في البناء الفكري والمنهجي للإسلام، وقد جعل الله هذه الأمة وسطاً، وخصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب لتكون أفضل الأمم وأعدلها وأكملها وأبعدها عن الغلو والتنطع فالوسطية تحمي الأمة، وتمنعها مما لحق بأمم سابقة كثيرة ضلت وانحرفت تارة بالغلو والزيادة، وتارة بالتفريط والتنقيص، والأمة الإسلامية لكونها أمة المنهج الوسط عليها مسؤولية ربانية فهي مكلفة بأن تحمل أكمل وأقوم منهج في التصور والأخلاق والتشريع إلى بقية المجتمعات الإنسانية، ومكلفة بدعوة الأمم الأخرى إلى الصراط المستقيم، سيما في الأوقات التي يزداد فيها الانحراف والبعد عن المنهج الرباني ويكثر فيها العنف والتطرف والعمل على تشويه صورة الإسلام الحقيقية وسعي أعدائه للنيل منه، ووسمه ونعته بالتخبط والفوضى والغوغائية، اتبعت الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي، وتوصلت إلى أن الوسطية في المفاهيم والممارسات التي تنبثق عنها أمر لازم ومطلوب وقد حث عليه القرآن الكريم، وإننا بحاجة دائمة إلى تنزيل مفاهيم الوسطية في الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية تجنباً للغلو والتفريط، توصي الدراسة بضرورة مراجعة الذات من حين إلى آخر للتأكد من صحة السير على الصراط المستقيم، والنظر في العواقب؛ لأن الخطأ من لوازم البشرية؛ لذلك فالأمر في حاجة إلى مراجعات مستمرة وتواصل غير منقطع بين المؤسسات خاصة التعليمية والدعوية والبحثية للتشاور والتفكير في كافة القضايا الحيوية حتى يتسنى لنا تحقيق منهج الأمة الوسط كما وصفها القرآن الكريم .

¹ استاذ التفسير المساعد - اللغة العربية والدراسات الإسلامية- حنتوب- جامعة الجزيرة

مقدمة

إن قضية المنهج المعتدل هي الأساس الذي يبنى عليه التحرك والتواصل والعمل على كافة المستويات، فالوسطية لا تمنعنا من الاعتزاز بما نملك من منهج وفكر ودعوة، والتواصل مع الآخر في مختلف مجالات الحياة اقتصاداً واجتماعاً وإعلاماً وسياسة ورياضة وثقافة وأدباً... إلخ، كما أنها تلزمننا بضرورة التعامل مع الناس بحسبان التفاوت القائم بينهم في القدرات وفي العلاقات وفي الالتزام؛ فالناس منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات، ومنهم مؤمن ومنهم كافر ومنهم منافق، كما أن منهم الصادق ومنهم الكاذب، هذا ينسحب على الأفراد وأيضاً على الأفكار والتصورات والتنظيمات والجماعات وكذا الدول والحكومات، وقد قضى الله عز وجل أن يكون هذا شأن البشر فهم لا يزالون مختلفين، فلا بد أن يكون الفرد متوازناً ومتوسطاً في تعاطيه مع الأشياء نظراً وتعاملاً وحكماً وسلوكاً قال جل وعلا (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا¹) وهذا ما نحتاجه اليوم، وما ينبغي أن يتنزل على مناهجنا ومؤسساتنا التعليمية والتوعوية والدعوية، فإسلامنا هو الدين المتوازن، وفكرنا هو الفكر المتوازن؛ لذلك نحن نمتلك القدرة على التعايش والتأثير الإيجابي في كافة الأفكار والتصورات بسبب هذا التوازن الذي يكون عقيدتنا ويصوغ منهجنا في الحياة

نأمل أن تكون هذه الدراسة إضافة تدفع باتجاه تأسيس رؤية متوازنة شاملة تكون لها انعكاسات إيجابية في كافة صُعد الحياة ومناحيها، ولا شك أن هذا يتطلب جهوداً كبيرة يرجى أن تقوم بها جهات عدة أهمها: مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي، ومؤسسات العمل الدعوي والثقافي بكل بلاد المسلمين. قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ²).
أهداف الدراسة:

هدفت هذه الدراسة إلى الآتي:

- 1- استجلاء مفهوم الوسطية من خلال النظر في القرآن الكريم، والوقوف على بعض أقوال علماء التفسير في ذلك.
- 2- استجلاء الضوابط والنظم الحاكمة والموجهة للمنهج الوسط.
- 3- التطرق إلى بعض أسباب الغلو والشطط في المفاهيم والممارسات، مما يؤكد على أهمية وضرة التزام الوسطية لضمان سلامة الأمة فكراً ومنهجاً وسلوكاً.
- 4- التطرق إلى بعض الملامح والمظاهر التي تبين وتوضح حقائق الدين القائمة على الوسطية بوصفها مرتكزاً رئيساً لبناء فكر الأمة المسلمة وتأسيسه.

مشكلة الدراسة:

العالم الإسلامي اليوم مليئ بالتجاذبات والتحديات، وقد نتج عن هذه التجاذبات مزيد من التعقيد اكتنف كل القضايا الجوهرية والمحورية، وانعكس سلباً على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كثير من البلدان، وبعض البلاد انزلت في مستنقع التقاتل والصراع المسلح الذي خلف أعداداً كبيرة من الضحايا قتلى وجرحى ومشردين ولاجئين؛ لذلك عملت هذه الدراسة على توضيح وسطية هذا الدين الحنيف الذي يأمر بالعدل والإحسان، وبأن يقال للناس حسناً.

منهج الدراسة:

استخدم الباحث المنهج الاستقرائي التحليلي للولوج إلى داخل القرآن الكريم، واستقصاء الآيات القرآنية التي تناولت الوسطية، وتبيان حقيقتها في المعنى اللغوي، ودلالاتها في الاستعمال القرآني

1 - سورة البقرة ، آية رقم 143

2سورة الانبياء ، آية رقم 105 .

حدود الدراسة :

تُعنى هذه الدراسة بتحليل الآيات والمفردات القرآنية التي تحدثت عن الوسطية صراحة أو إشارة .
الدراسات السابقة : نظراً لأهمية هذه القضية فقد كتبت فيها كتب وأبحاث تحت عناوين مختلفة وتم تناولها من عدة زوايا ومما كتب في ذلك :

- 1- كلمات في الوسطية الإسلامية ومعالمها، للدكتور يوسف القرضاوي .
- 2- الوسطية في الإسلام، للدكتور زيد بن عبد الرحمن الزيد .
- 3- الوسطية في القرآن الكريم، للدكتور علي محمد محمد الصلابي.

تحديد مفهوم الوسطية**أولاً: في اللغة**

- جاءت كلمة (وسط) في اللغة لعدة معانٍ مُتقاربة في مدلولها عند التأمل في حقيقتها ومآلها.
قال ابن فارس: (وسط): الواو والسين والطاء: بناء صحيح يدلّ على العدل والنصف.
وأعدل الشيء: أوسطه، ووسطه، قال الله تعالى (أُمَّةً وَسَطًا) ويقولون: ضربتُ وَسَطَ رأسه - بفتح السين - ووسط القوم - بسكونها - وهو أوسطهم حسبًا - إذا كان في واسطة قومهم وأرفعهم محلاً⁽³⁾.
ومن هذا الكلام يتضح أنّ (وسط) تأتي بفتح السين وسكونها، وفتحها أكثر استعمالاً كما سيأتي.
ويمكن إجمال المعاني التي جاءت تدلّ عليها هذه الكلمة فيما يلي⁽⁴⁾ .
- 1- (وسط) بسكون السين تكون ظرفاً بمعنى (بين)، قال في لسان العرب: وأمّا الوسط بسكون السين فهو ظرف لا اسم، جاء على وزن نظيره في المعنى وهو (بين)، تقول: جلست وسط القوم، أي: بينهم⁽⁵⁾ .
 - 2- وتأتي - وسط بالفتح - اسماً لما بين طرفي الشيء وهو منه، ومن ذلك: قبضتُ وسط الحبل، وكسرت وسط القوس، وجلست وسط الدار، وهذه حقيقة معناها كما ذكر ابن بري⁽⁶⁾ .
 - 3- وتأتي - بالفتح أيضاً - صفة، بمعنى خيار، وأفضل، وأجود، فأوسط الشيء أفضله وخياره: كوسط المرعى خير من طرفيه، ومرعى وسط أي: خيار.
وواسطة القلادة: الجوهر الذي وسطها، وهو أجودها، ورجل وسط ووسيط: حسن⁽⁷⁾ .
 - 4- وتأتي وسط - بالفتح - بمعنى عدل، قال ابن فارس: وسط: بناء صحيح يدلّ على العدل، وأعدل الشيء أوسطه ووسطه.
- وقال ابن منظور: ووسط الشيء وأوسطه: أعدله.
وقال الفيروز آبادي: الوسط من كل شيء: أعدله⁽⁸⁾ .
- 5- وتأتي (وسط) بالفتح - أيضاً - للشيء بين الجيد والرديء.
قال الجوهري: ويقال: شيء وسط: أي بين الجيد والرديء.
وقال صاحب المصباح المنير: يُقال شيء وسط، أي بين الجيد والرديء⁽⁹⁾ .
 - 6- ومنه ما ورد في الحديث: ولكن من وسط أموالكم فإنّ الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشرّه⁽¹⁰⁾ .
 - 6- ويقال (وسط) لما له طرفان مذمومان، يراد به ما كان بينهما سالمًا من الدّم وهو الغالب.

3 - انظر: معجم مقاييس اللغة مادة: (وسط) 108/6 .

4 - انظر تفصيل ذلك في المعجم اللغوي، ووسطية أهل السنة بين الفرق لمحمد باكريم - مخطوط - والوسطية في الإسلام لزبد الزيد.

5 - انظر لسان العرب مادة (وسط) (428/7).

6 - لسان العرب مادة (وسط) (427/7).

7 - انظر: لسان العرب مادة (وسط) (427/7، 430)، والصاحح مادة (وسط) (1167/3)، ووسطية أهل السنة ص2.

8 - انظر: معجم مقاييس اللغة مادة (وسط) ولسان العرب مادة (وسط) والقاموس المحيط مادة (وسط) ووسطية أهل السنة بين الفرق ص 2.

9 - انظر: مادة (وسط) في الصحاح، والمصباح المنير ص (252)، ووسطية أهل السنة ص (3/2).

10 - أخرجه أبو داود (103/2، 104) رقم (1582)، والطبراني في الصغير ص (115). والبيهقي في السنن (95/4). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (3041).

قال الراغب: وتارة يُقال لما له طرفان مذمومان⁽¹¹⁾ ، ومثال ذلك: السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور⁽¹²⁾ .⁽¹³⁾

وأختم ما قيل في معنى الوسط بهذا الكلام للشيخ ابن عاشور، حيث قال في معرض تفسيره لقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) .

والوسط: اسم للمكان الواقع بين أمكنة تحيط به، أو للشئ الواقع بين أشياء محيطة به، ليس هو إلى بعضها أقرب منه إلى بعض عرفاً، ولما كان الوصول إليه لا يقع إلا بعد اختراق ما يُحيط به، أخذ فيه بمعنى الصيانة والعزة؛ طبعاً: كوسط الوادي لا تصل إليه الرعاة والدواب إلا بعد أكل ما في الجوانب، فيبقى كثير العشب والكأ، ووضعاً: كوسط المملكة يجعل محلّ قاعدتها، ووسط المدينة يجعل محل قببتها ، لأنّ المكان الوسط لا يصل إليه العدو بسهولة ، وكواسطة العقد لأنفس لؤلؤة فيه ، من أجل ذلك صار معنى النفاسة والعزة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفاً، فأطلقوه على الخيار النفيس كناية¹⁴ قال زهير بن أبي سلمى :

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعضل¹⁵

ثانياً : في القرآن الكريم

وردت كلمة (وسط) في القرآن بتصاريفها المتعددة، في خمسة مواضع هي: البقرة في موضعين والمائدة والقلم والعاديات، حيث وردت بلفظ: (وَسَطًا) في سورة البقرة⁽¹⁶⁾ و (الْوَسْطَى) أيضاً في سورة البقرة⁽¹⁷⁾ و (أَوْسَطِ) في سورة المائدة⁽¹⁸⁾ و(أَوْسَطُهُمْ) في سورة القلم⁽¹⁹⁾ و (فَوْسَطَنَ) في سورة العاديات⁽²⁰⁾

وسأذكر معاني ثلاث كلمات حسب ورودها في القرآن الكريم، وكلام المفسرين فيها.

أولاً: كلمة (وسطاً):

وردت في قوله تعالى في سورة البقرة: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا⁽²¹⁾) .

1- روى الطبري بإسناده عن النبي ، في قوله: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) قال: عدولاً⁽²²⁾ . وقد ساق الطبري عدداً من الروايات في هذا المعنى. ثم ذكر تفسير هذه الآية منسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين، كأبي سعيد ومجاهد وغيرهما، حيث فسروها ب عدولاً. وكذلك نقل تفسير ابن عباس لها بقوله : جعلكم أمة عدولاً ، وقال ابن زيد: هم وسط بين النبي وبين الأمم⁽²³⁾ .

وقال : وأما الوسط فإنه في كلام العرب: الخيار، يُقال منه : فلان وسط الحسب في قومه، أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه.

11- انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: وسط ص (522).

12- انظر: الوسطية لفريد عبد القادر ص (9).

13- وسطية أهل السنة ص (3)، وانظر: لما سيأتي لسان العرب مادة (وسط) وتاج العروس مادة (وسط) والصحاح مادة (وسط).

14- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج 2 ص 17 ، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس 1997م .

15- الزمخشري ، أساس البلاغة ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، ج 2 ، ص 333 ، ط 1 1419 هـ - 1998م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

16- آية 143 .

17- آية 238 .

18- آية 89 .

19- آية 28 .

20- آية 5 .

21- سورة البقرة ، آية 143 .

22- انظر: تفسير الطبري (7/2). والحديث أخرجه الترمذي (190/5) رقم (2961) وأحمد (9/3) وعندهما "عدلا" بدل "عدولاً".

23- انظر: تفسير الطبري (7/2).

وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط: العدل - كما سبق - وذلك معنى الخيار؛ لأنَّ الخيار من الناس عدولهم⁽²⁴⁾.

2- قال ابن كثير: وقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)، الوسط هنا: الخيار والأجود، كما يُقال في قریش: أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها، وكان رسول الله وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصّحاح وغيرها²⁵.

3- وقال ابن الجوزي في تفسيره لهذه الآية: سبب نزولها أنّ اليهود قالوا: قبلتنا قبله الأنبياء ونحن عدل بين الناس، فنزلت هذه الآية، والوسط: العدل قاله ابن عباس وأبو سعيد ومجاهد وقتادة.

4- وقال ابن قتيبة: الوسط: العدل والخيار، ومنه قوله - تعالى -: (قَالَ أَوْسَطُهُمْ) أي: أعدلهم وخيرهم .

5- وهذا ما قال به الرازي في تفسيره حيث قال: في قوله تعالى: (فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ) قال: والأوسط هو الأعدل²⁶.

وأورد الخازن في تفسيره لقوله تعالى: { فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ } يعني من أقصد ذلك لأنَّ من الناس من يسرف في إطعام أهله، ومنهم من يقتر عليهم، فأمر الله بالعدل في أداء الكفارة .

6- وذكر ابن عطية أنّ المقصود هو التوسط في القدر²⁷ .

7- وذكر سيد قطب في قوله تعالى: (فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا) أنّه حتى في الحرب فإننا إذا استطعنا أن نتوسط جيوش الأعداء فسنلحق بهم الهزيمة النكراء لأنَّ توسطها يعني اختراقها²⁸ .

تحرير مفهوم الوسطية

لاشك أنّ هناك تشوهات كبيرة ألمت بالعقل المسلم، وقد وفرت هذه التشوهات تربة صالحة لنمو الأفكار المنحرفة والتنتع والغلو، وأيضاً التساهل والترك، ولإصابة الأمة بهذه التشوهات أسباب عدة بعضها داخلي وبعضها خارجي أدت في مرحلة من مراحل حراك الأمة إلى الانسجام بالسلبية والخنوع والانصراف تدريجياً عن خوض غمار البحث والتنقيب والبناء والإبداع إلى الانغماس في غمار الفقر والجهل والخرافة واليأس والتقليد²⁹ لأجل ذلك كان البحث والتقصي عن الوسطية بمبانيها ومعانيها كما وردت في القرآن الكريم لنهتدي بها أجمعين، ولنعمل جاهدين على أن يتشكل فكر قادة المجتمع على المفاهيم المستخلصة من خلال نظر هذه القضية في القرآن الكريم .

بناءً على ما سبق من استعراض لمعنى الوسطية في اللغة وفي القرآن ومحاولة من الباحث لتحرير المفهوم لنخرج به من المصطلحات والمعاني العامة والمجتملة إلى تنزيهه على واقعنا لنحقق من خلاله هدفنا المنشود وهو تحقيق المفهوم الشامل للوسطية في مناحي الحياة وجوانبها المتعددة بشقيها النظري والعملية والفكرية والتطبيقي؛ لنتعدى به الفرد والأسرة إلى المجتمع والدولة والمؤسسات .

اتضح بالاستقراء أن كلمة (وسط) تستعمل في معان عدة أبرزها ما يلي:

أولاً: الخيار والأفضل والعدل (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)⁽³⁰⁾.

ثانياً: قد ترد لما بين شيئين فاضلين، (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)⁽³¹⁾ .

24 - الطبري (6/2).

⁵ - عمدة التفسير عن ابن كثير ، 263/1 ، تحقيق أحمد محمد شاكر .

1-الرازي ، مفتاح الغيب ، ج/1ص420 .

2- ابن عطية الأندلسي ، المحرر الوجيز ، ج/1 ص 150 .

3- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج/ 30 ص 3957 .

¹ - عبد الحميد أبو سليمان، أزمة الإرادة والوجدان المسلم، الطبعة الثانية، 1426هـ-2005م، دار الفكر - دمشق.

² - سورة البقرة ، آية 143 .

³ - سورة البقرة ، آية 238 .

ثالثاً : وتستعمل لما كان بين نوعين وهو خير، (قَالَ أَوْسَطُهُمْ³²) .

رابعاً : وتستعمل لما كان بين الجيد والردىء، (... مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ³³)

ومن جملة ما سبق بيانه نستطيع أن نستخلص تعريفاً خاصاً محدداً للوسطية فنعرّفها بأنها : منهج في فهم الإسلام والعمل به يقوم على نبذ التطرف والعلو والتشديد سواء كان ذلك التشديد على النفس أو على الغير، وأما ما شاع عند الناس، وانتشر من الوقوف عند أصل دلالتها اللغوية، أي التوسط بين طرفين مهما كان موضوع هذا الوسط الذي تم اختياره من صراط الله المستقيم التزاماً وانحرافاً، فليس بمفهوم صحيح وفق ما تبينه الآيات القرآنية⁽³⁴⁾، إذ لا يلزم لكل ما يعد وسطاً في الاصطلاح أن يكون له طرفان، فالعدل وسط ولا يقابله إلا الظلم والصدق وسط ولا يقابله إلا الكذب⁽³⁵⁾ والأمانة وسط ولا يقابلها إلا الخيانة.

سمات المنهج الوسط وملامحه كما طرحها القرآن الكريم :

لقد جاء ذكر الوسطية في القرآن الكريم بأساليب عدة تصريحاً وإيماءً؛ فبيّن القرآن الكريم أنّ للوسطية أساساً لا بد للمسلم من معرفته سواء كان حاكماً أو مفكراً أو باحثاً، وهذا الأساس هو الصراط المستقيم. ولمعرفة الوسطية على الوجه الدقيق لا بد له من استيعاب الأساس الذي ذكر، فالصراط المستقيم، أو الصراط السوي، هو وسط بين الغلو والجفاء أو الإفراط والتفريط، وكما بيّن القرآن الكريم أن للوسطية ملامح وسمات تحف بها، وتميّزها عن غيرها، بمجموع تلك الملامح لا بإفرادها، وبعد الوقوف على بعض ما كتب حول مفهوم الوسطية وضوابطها تبين أيضاً أنّ هناك سمات وملامح يتميز بها الفكر الوسط والسلوك الوسط، وتحديد هذه الملامح مهمة أساسية للمسلم مفكراً أو حاكماً أو رب أسرة إلخ حتى لا تكون الوسطية مجالاً لأرباب الشهوات وأصحاب الأهواء ذلك أن الوسطية مرتبة عزيزة المنال غالية الثمن، كيف لا وهي سمة هذه الأمة، ومحور تميزها بين الأمم، جعلها الله خاصة من خصائصها تکرماً منه وفضلاً (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)³⁶.

وبالنظر يتضح أن من أهم ملامح الوسطية وسماتها ما يلي :

- 1- العدل (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ³⁷)
- 2- الخيرية ، (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ³⁸)
- 3- اليسر ورفع الحرج ، (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ³⁹)
- 4- الحكمة ، (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ⁴⁰)
- 5- الاستقامة، (...فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ⁴¹)

وكل سمة من هذه السمات يدخل تحتها عدد من أفرادها، ولكل سمة ما يلائمها وفيها بغرضها، ومعرفة هذه الملامح والسمات تعييننا على ضبط وتحديد مفهوم الوسطية ومعرفتها وربطها بمفهوم الصراط المستقيم .

وبالتأمل فيما سبق يتضح لنا ما يلي:

4- سورة القلم ، آية 28 .

5- سورة المائدة ، آية 89 .

1- انظر فريد عبد القادر ، الوسطية في الإسلام ، ص(29) بتصرف.

2- المرجع السابق (33) .

1- علي محمد الصلابي ، الوسطية في القرآن الكريم ، ط دار المعرفة - بيروت لبنان .

2-سورة النساء ، آية 58 .

3-سورة آل عمران ، آية 0 .

4-سورة البقرة ، آية 185 .

5-سورة النحل ، آية 125 .

6-سورة فصلت ، آية 6 .

أولاً: أن الصراط المستقيم: يمثل قمة الوسطية وذرورة سنامها وأعلى درجاتها وآيتا الفاتحة والبقرة حجة قاطعة في ذلك ولهذا يردد المسلم في اليوم الواحد مرات كثيرة {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ⁴² وهنا يجدر بنا أن نتوقف قليلاً لتجلية مفهوم الصراط المستقيم لنقف على أسرار القرآن وكنوزه .

إننا دون فهم معنى (الصراط المستقيم)، وتحديد مدلوله، لا نستطيع فهم (الوسطية) فهماً سديداً رشيداً . وقد ورد لفظ (الصراط المستقيم)، في القرآن الكريم مراراً وبصيغ عدة، فقد جاء بلفظ {صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} ⁴³ و {صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} ⁴⁴ و {صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا} ⁴⁵ ونحو ذلك. ففي سورة الفاتحة نجد أن قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ⁴⁶ مفسره بأنه: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ⁴⁷.

هذه بعض الآيات التي وردت في القرآن الكريم تحدثنا عن الصراط فما هو؟:

قال الطبري : في قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} (الفاتحة:6) ، أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وكذلك في لغة جميع العرب، من ذلك قول جرير بن الخطفي :

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوجَّ الموارد مستقيم

وقال ابن عباس : قال جبريل لمحمد، ﷺ {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} : يقول: ألهمنا الطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا عوج له ⁴⁸ .

وقال : وإنما وصفه الله بالاستقامة، لأنه صواب لا خطأ فيه .

وقال: كل حائد عن قصد السبيل، وسالك غير المنهج القويم فضالّ عند العرب، لإضلاله وجه الطريق ⁴⁹ . وقال ابن كثير : واختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله ورسوله ⁵⁰.

وأعرض الآن بعض أقوال المفسرين الذين أشار إليهم ابن كثير - رحمه الله ⁵¹.

فقد روى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي، ﷺ أنه قال: (وذكر القرآن فقال: هو الصراط المستقيم ⁵²).

وقال أبو العالية : هو رسول الله، ﷺ وصاحبه من بعده أبو بكر وعمر ، قال الحسن : صدق أبو العالية ونصح.

وقال القاسمي في تفسيره لهذه الآية في سورة الفاتحة: ينبغي أن يُعلم أنّ الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين:

أحدهما ليس فيه تضاد وتناقض، بل يمكن أن يكون كلّ منهما حقاً، وإنّما هو اختلاف تنوع، أو اختلاف في الصفات أو العبارات.

¹-سورة الفاتحة ، آية 5.

²-سورة النساء ، آية 68 .

³-سورة الأعراف ، آية 16 .

⁴-سورة الأنعام ، آية 153.

⁵-سورة الفاتحة ، آية 6 .

⁶-سورة الفاتحة ، آية 7 .

¹-الطبري - جامع البيان ، ج 1 ، ص - 73-74

²-الطبري - جامع البيان ، ج 1 ، ص 74 و 85 .

⁵⁰-ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ، ج 1 ، ص 27 .

4 انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري (1 / 74 ، 75) . وزاد المسير (1 / 15) -4

⁵-أخرجه الترمذي (5 / 158 ، 159) رقم (2906) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. وأخرجه - أيضاً - الدارمي (2 / 527) رقم (3332). وأخرجه أحمد

مختصراً (1 / 91).

وعامة الاختلاف الثابت عن مفسري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب.
 فالله - سبحانه وتعالى - إذا ذكر في القرآن اسماً مثل قوله: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} (الفتح:6)
 فكل من المفسرين يعبر عن الصراط المستقيم بعبارة تدل على بعض صفاته، وكل ذلك حق، بمنزلة ما
 يُسمى الله ورسوله، وكتابه بأسماء، كل اسم منها يدل على صفة من صفاته.
 فيقول بعضهم: الصراط المستقيم: كتاب الله، أو اتباع كتاب الله.
 ويقول الآخر: الصراط المستقيم: هو الإسلام أو دين الإسلام.
 ويقول الآخر: الصراط المستقيم: هو السنة والجماعة.
 ويقول الآخر: الصراط المستقيم: هو العبودية، أو طريق الخوف والرضا والحب، وامتنال الأمور،
 واجتناب المحذور، أو متابعة الكتاب والسنة، أو العمل بطاعة الله، أو نحو هذه الأسماء والعبارات.
 ومعلوم أن المسمى هو واحد، وإن تنوّعت صفاته وتعدّدت أسماؤه وعباراته⁵³.
 ثم قال في موضع آخر: فإن الصراط المستقيم أن تفعل في كل وقت ما أمرت به في ذلك الوقت من علم
 وعمل، ولا تفعل ما نُهييت عنه، وهذا يحتاج في وقت إلى أن تعلم ما أمر به في ذلك الوقت، وما نُهي عنه،
 وإلى أن يحصل لك إرادة جازمة لفعل الأمور، وكراهة لترك المحذور، والصراط المستقيم قد فسّر
 بالقرآن، والإسلام، وطريق العبودية، وكل هذا حق، فهو موصوف بهذا وبغيره .
 وفي قوله تعالى: {وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا} (الأنعام: من الآية 126) قال الطبري: هو صراط ربك -
 يقول: طريق ربك، ودينه الذي ارتضاه لنفسه ديناً، وجعله مستقيماً لا اعوجاج فيه⁵⁴.

دعوة القرآن للالتزام بالوسطية

القرآن الكريم رسم لنا منهج الوسطية في جميع جوانبه أصولاً وفروعاً وعقيدة وعبادة وخلقاً وسلوكاً
 وتصوراً وعملاً، ولقد خاطب القرآن الكريم الأمة ابتداءً خطاب إعلام وإخبار وتعريف فيما يخص هدفها
 ومهمتها وهويتها وصفاتها فهي أمة قولها حسن، وجدالها بالتي هي أحسن، أمة تحاور غيرها بالحكمة
 والموعظة الحسنة، أمة لا تعندي ولا تسفك الدم المعصوم ولا تهتك العرض المصون، أمة متوازنة في
 إنفاق المال (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا⁵⁵) ومتوازنة في حركتها وفعلها
 (وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَأَصْوْتُ الْحَمِيرِ⁵⁶) ومتوازنة في سلوكها
 وعلاقاتها (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ⁵⁷) ولقد
 جاء منهج الوسطية من خلال القرآن الكريم في أساليب عدة كما أسلفنا، يلحظ ذلك المتتبع لآياته في كثير
 من سوره المكية منها والمدنية .

**والكلام عن التزام الوسطية يتطلب منا أن نحرر ونحدد من المطالب بها هل نحن نطالب المجتمع
 بمؤسساته المختلفة أم نطالب الدولة بمؤسساتها المختلفة أم نطالب الاثنين معاً المجتمع بمؤسساته والدولة
 بمؤسساتها؟ والمقصود بمؤسسات المجتمع: تلك الجمعيات والمنظمات الأهلية والشعبية التي تقوم بأنشطة
 في مجالات متعددة تختص بالشباب أو بالمرأة أو بذوي الاحتياجات الخاصة أو بدعم الفقراء والمحتاجين
 وإعانتهم، كما يدخل في مؤسسات المجتمع الأنشطة الفكرية والدعوية التي تقوم بها جمعيات تطوعية، أو
 يقوم بها أفراد علماء ودعاة أو مفكرون، إلخ فكما أن انحراف بعض مؤسسات المجتمع يؤدي إما إلى
 التجافي والعلو وإما إلى تمييع القضايا والاستهانة بالأمور المهمة؛ الأمر الذي يعد مجافياً للتوازن**

1- القاسمي - تفسير القاسمي ، ج 1 ، ص 20 .

1 - الطبري - جامع البيان ، ج 8 ، ص 32 .

2- سورة الفرقان ، آية 67 .

3- سورة لقمان ، آية 19 .

4- سورة لقمان ، آية 18 .

والتوسط في النظر، ومن ثمَّ التخطيط والتعامل وبالتالي يتولد نتيجة لهذا الخلل مفهوم غير متوازن يتبعه عمل وممارسة غير متوازنة تختلف في درجة انعكاسها وتأثيرها سلباً أو إيجاباً على المحيط الذي تقع فيه، وبحسب الشخص الذي تقع منه؛ ولذلك فإننا نجد أنّ انحراف الدولة عن منهج الوسطية في التعامل مع القضايا التي تهم المجتمع بصورة مباشرة سواء كانت قضايا سياسية أو اقتصادية أو كانت قضايا تتعلق بالسلم أو الحرب أو الإعلام أو التعليم.... إلخ، تجاوز الدولة لمنهج الوسطية في ممارسة وتنفيذ ومباشرة مثل هذه القضايا الكبيرة بالضرورة سيؤدي إلى انعكاسات سلبية وخطيرة داخل المجتمع؛ ولهذا فالدولة تقع على عاتقها مسؤولية أخلاقية عظيمة لتشكيل الفكر الوسط، ومن ثم تأسيس السلوك الذي ينتظم المجتمع بكل محاور حياته في مستوياته الخاصة والعامة؛ لذا فإنّ كلاً من المجتمع، والدولة مطالب بأن يأخذ بالوسطية في كل متعلقات حياته وشؤونه وتعاملاته .

ملامح منهج الوسطية ومظاهره :

لاشك أنَّ المنتبِع لمفهوم الوسطية حسب ما ورد في القرآن الكريم يلحظ بجلاء ووضوح الدعوة إلى معاني العدل والاعتدال والاستقامة والتوازن واحترام الآخر، وإلى نبذ العنف بصوره المختلفة، وتجنب القسوة والغضب والانتقام والإسراف والتقتير .

فالرؤية تقوم على أساس أنّ التصور الإسلامي بمقوماته وعناصره وأركانه ومقاصده مؤسس ومبني على الوسطية، وهي تشمل جوانب عدة منها :

أولاً : وسطية في قضايا الإيمان، كما قال تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْإِلَّاهَ الْحَقُّ⁵⁸) ففي مجال الاعتقاد الإسلام وسط بين الخرافيين الذين يصدقون بكل شيء ويؤمنون بغير برهان، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس، كما أنّه وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله قط، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأبقار والأهوا الأوثان والأحجار. وهو وسط بين الذين يقصدون الأنبياء حتى رفعوهم إلى مرتبة الألوهية أو البنوة للإله، وبين الذين كذبوهم واتهموهم وصبوا عليهم كؤوس العذاب، وهو وسط بين الذين يؤلّهون الإنسان وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية.

ثانياً : وسطية التصور، لا تغلو في التجرد الروحي، ولا الارتهاق المادي .

ثالثاً : وسطية الأخلاق والسلوك، قال تعالى : { وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا⁵⁹ } فالإسلام وسط بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً، أو شبه ملاك وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان؛ فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مُركب فيه العقل وفيه الشهوة، فيه غريزة الحيوان وروحانية الملاك .

رابعاً : وسطية التشريع؛ ففي مجال التشريع نجد الإسلام وسطاً في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم وكثرت فيها المحرّمات مما حرّمه إسرائيل على نفسه ومما حرّمه الله على اليهود جزاء بغيهم وظلمهم، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة، فالإسلام قد أحلّ وحرّم، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق بشر، بل من حق الله وحده، ولم يحرم إلا الخبيث الضار، كما لم يُحلّ إلا الطيب النافع⁶⁰ .

سادساً : وسطية العبادات، وفي مجال العبادات والشعائر نجد الإسلام وسطاً بين الأديان واليحلّ التي ألغت الجانب (الرباني) -جانب العبادة والتنسك - من فلسفتها وواجباتها، كالبودية التي اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده.. وبين الأديان واليحلّ التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة

1- سورة النساء، آية 171 .

2- سورة الفرقان، آية 67 .

1- يوسف القرضاوي، كلمات في الوسطية ومعالمها .

والانقطاع عن الحياة والإنتاج، كالرهبانية المسيحية، فالإسلام يطلب من المسلم أداء شعائر محدودة، ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً يمشي في مناكب الأرض، ويأكل من رزق الله، وكانت قصة نهي رسول الله ﷺ ثلاثة من أصحابه عن الغلو في العبادة مشهورة، ظناً منهم أنّ أفضلية العبادة، وعظم ثوابها لا تحصل إلا بالمشقة البالغة وحرمان أنفسهم من طيبات الدنيا، وقد صحح النبي ﷺ فهمهم الخاطيء؛ وأرشدهم إلى منهج وسطية العبادة في الإسلام⁶¹.

ضوابط الوسطية :

وللحديث عن ضوابط الوسطية نشير إلى ما ذكره أيضاً الدكتور يوسف القرضاوي عن بعض مظاهر التطرف الذي يتنافى مع مبدأ الوسطية، لكنني أركز على مناقشة القضية بصورة مفتوحة حتى يتسنى لنا الإحاطة الكاملة بكليات مفاهيمية قد تكون مفيدة بدرجة أكبر من العمل على رص بعض الشروط والحدود والتقسيمات، وقد ذكر القرضاوي ستة مظاهر هي كما يلي :

- 1 . التعصب للرأي وعدم الاعتراف بالرأي الآخر.
- 2 . إلزام جمهور الناس بما لم يلزمهم الله به .
- 3 . التشديد في غير محله .
- 4 . الغلظة في التعامل والخشونة في الأسلوب والفظاظة في طرح الرؤى والأفكار
- 5 . سوء الظن بالناس والنظر إليهم من خلال منظار أسود والغرور بالنفس وازدراء الآخرين
- 6 . السقوط في هاوية التكفير⁶².

كما ينبغي الإشارة أيضاً إلى بعض الضوابط والدعائم الفكرية التي تبرز الوسطية، وتحدد معالمها وتحسم منطلقاتها وأهدافها، وتميز المتصف بها عن غيره، وتتمثل فيما يلي :

- 1- الملائمة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر .
- 2- فهم النصوص الجزئية في ضوء المقاصد الكلية للشريعة .
- 3- التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة .
- 4- التشديد في الأصول والكليات، والتيسير في الفروع والجزئيات .
- 5- الثبات في الأهداف والمرونة في الوسائل .
- 6- الحرص على الجوهر قبل الشكل، وعلى الباطن قبل الظاهر، وعلى أعمال القلوب قبل أعمال الجوارح .
- 7- الفهم التكاملي للإسلام بوصفه عقيدة وشريعة ودينياً ودولياً ودعوة .
- 8- دعوة المسلمين بالحكمة، وحوار الآخرين بالحسنى .
- 9- الجمع بين الولاء للمؤمنين، والتسامح مع المخالفين .
- 10- الجهاد والإعداد للمعتدين، والمسامحة لمن جنحوا للسلم .
- 11- التعاون بين الفئات المسلمة في المتفق عليه، والتسامح في المختلف فيه .
- 12- ملاحظة تغير أثر الزمان والمكان والإنسان في الفتوى والتعليم والدعوة والقضاء
- 13- اتخاذ منهج التدرج الحكيم في الدعوة والتعليم والفتوى والتغيير .
- 14- الجمع بين العلم والإيمان، وبين الإبداع المادي والسمو الروحي، وبين القوة الاقتصادية والقوة الأخلاقية .
- 15- التركيز على المبادئ والقيم الإنسانية والاجتماعية كالعدل والشورى والحرية وحقوق الإنسان.
- 16- تحرير المرأة من رواسب عصور التخلف، ومن آثار الغزو الفكري الغربي .
- 17- الدعوة إلى تجديد الدين من داخله، وإحياء فريضة الاجتهاد من أهله في محله
- 18- الحرص على البناء لا الهدم، وعلى الجمع لا التفريق، وعلى القرب لا المباعدة .

2- سيد قطب، في ظلال القرآن - م 1، ص 125، ط 12، 1406هـ- 1986م، دار العلم للطباعة والنشر - جدة، ودار الشروق - القاهرة .

1- يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجود والتطرف، ص 27، 60.

19- الجمع بين استلهايم الماضي، ومعايشة الحاضر واستشراف المستقبل⁶³.
غير أنّ الباحث يرى أنّه من أعقد المسائل والقضايا التي تسبب لنا إشكالات وانحرافات خطيرة تحيد بكثيرين عن المفهوم والمنهج الوسطي المتوازن، وعن الالتزام الدقيق بضوابط الوسطية الواقع الذي تعيشه أمتنا اليوم من اختلاف كبير وعميق في المدارس الفكرية والمشارب العلمية سيما فيما يتعلق بالمحاور الثلاثة الأساسية وهي :

1- المحور السياسي .

2- المحور الاقتصادي .

3- المحور الاجتماعي .

هذه المحاور الثلاثة تشكل حيز الزاوية بالنسبة لما نحن بصده من تحليل دقيق ووضع خطط واضحة تثمر تعاوناً وتفهماً من كل فئات مجتمعاتنا خصوصاً النخب والشباب والمرأة والساسة، وكل واحد من المحاور الثلاثة تتعلق به قضيتان.

الأولى : داخلية تعني الأمة بكل مكوناتها وعلاقاتها وتياراتها الفكرية والسياسية .

والثانية : خارجية وتتعلق بصلتنا بالآخر سياسة واقتصاداً وتعايشاً.

ففيما يخص المحور السياسي على المستوى الداخلي للأمة نجد أنّ هناك قضايا ملحة ومهمة، مثل: قضايا الحريات والحقوق والمرأة، وتغليب لغة الحوار عند الاختلاف وتباين الأفكار والرؤى على لغة السب والشتم والتجريح والتفسيق والتكفير ، إضافة إلى قضايا التنمية والبطالة، والعدالة في توزيع السلطة والثروة وإشراك كافة القطاعات في إدارة الدولة والمجتمع إشراكاً حقيقياً فاعلاً وليس شكلياً رمزياً صورياً بلا مضامين .

أما فيما يخص ذات المحور على المستوى الخارجي فمن الأهمية بمكان أن نقر ابتداءً بأنّ الأمر في غاية التعقيد، ويحتاج منا إلى عمق في التفكير وشجاعة في التناول وصدق في التوجه، كما يحتاج منا إلى تعاون بين العلماء والمفكرين والساسة والحكام، تعاون مؤسسي تتداخل فيه عدة جوانب ومجالات وتوفر له كل أسباب النجاح المتمثلة في الكادر البشري المؤهل وفي المعينات والضمانات اللازمة امتثالاً لمضمون الآية الكريمة (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ⁶⁴)، غير أنّ الإشكالية العظيمة التي تصاحب مفهوم الولاء والبراء تتمثل في الخلط المفاهيمي على المستويين، الداخلي الذي يخص الأمة بكل مكوناتها والخارجي الذي يخص التعامل مع الآخر سلماً وحرباً، ويخص كذلك التمييز بين من أمرنا ببره والقسط إليه، وبين من أمرنا بأن نعامله بغير ذلك؛ كما في سورة الممتحنة وهي سورة مدنية وآياتها محكمة غير منسوخة، ولذا فالأمر كما قال بعض المفكرين إنّ الحوار مع الآخر ضرورة تفرضها طبيعة العصر وإنه من غير الممكن أن نلتزم الحياد أمام المد الحضاري الذي يعيش فيه العالم اليوم.

وفيما يتعلق بمعالجة مشكلة الغلو في الدين يرى بعض المفكرين أننا لكي نعالج مشكلة لابد لنا من معرفة أسبابها أولاً، ومن أهم أسباب الغلو كما ذكروا :

1- الجهل بحكم الله تعالى في الأمر مع الغيرة على دين الله وتعظيم حرّماته.

2- الهوى المؤدي للتعسف في تأويل النصوص والآيات والأحاديث.

3- انتشار الانحلال الخلقي مما يؤدي إلى ردود أفعال انفعالية غير منضبطة.

4- الانفصام بين ما يتعلمه الشباب من أخلاق ومثل وقيم عليا، وبين الواقع الفعلي.

5- الفراغ الروحي الذي يعاني منه الشباب، والبطالة وعدم المقدرة على بناء حياة

¹ - يوسف القرضاوي ، الوسطية الإسلامية ومعالمها ، ط1، 2007م ، المركز العالمي للوسطية - الكويت
1- سورة الأفل ، آية 73 .

كريمة في ظل صراع مادي عنيف⁶⁵، إ هـ.

وفيما يخص المحورين الاقتصادي والاجتماعي فإن تأخرنا في التنمية بشرية أو عمرانية مع كثرة مواردنا، وتعدد مصادر ثروتنا من شأنه أن يسبب استياء كبيراً وسط الشباب والنخب، ويدفع بكثيرين منهم إلى توجهات ومنطلقات فكرية وعملية غير حميدة؛ لذلك فإن جهداً كبيراً ينتظر أن يبذل من الدولة ومن مؤسسات المجتمع لإصلاح واقع الناس معاشاً وتعليمياً وصحة وخدمات اجتماعية أخرى الحاجة إليها ماسة للغاية في ظل احتكاك الأمم والشعوب الأخرى عبر التواصل المباشر أو عبر أجهزة الإعلام المختلفة .

فاقتصادياً نحن مطالبون بممارسة نشاط اقتصادي راشد وعادل يوفر ضماناً وأماناً لشبابنا ولشرائح مجتمعاتنا المختلفة، ويلبي في الأقل الحد الأدنى من مطالب هذه المجتمعات؛ وهذا يتطلب وضع سياسات وخطط لرفع الإنتاج، وتحقيق الاكتفاء ولاكتشاف المبدعين والعلماء ودعمهم بما يحقق لأمتنا نهضة صناعية شاملة واكتفاء وافرأ وحقيقياً مربوطاً بالإيمان والتقوى وصلاح الأفراد والمجتمعات لقوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ⁶⁶)

من مظاهر الانحراف عن منهج الوسطية :

في آخر عهد الخليفة عثمان-رضي الله عنه- ظهرت الفتنة بسبب الانحراف عن المنهج الوسطي في الدعوة، وأطلقت برأسها، وانتهت بمقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه ظلماً وعدواناً .

ولعل هذه كانت بداية الفتنة الكبرى في تاريخ الإسلام، وذلك حينما انحرفت دعوة الإصلاح أو الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن الوجه الشرعي الصحيح، وظهر الخوارج فكان ظهورهم يمثل انحرافاً عن منهج الإسلام في الدعوة إلى الإصلاح، وذكّرهم الخليفة الراشد علي-رضي الله عنه- بهذا المنهج الأقوم والأرشد، ولكنهم تنكبوا الطريق، وعدّوا على ولي الأمر وخليفة المسلمين بعد أن بايعه الناس ورضوه إماماً لهم، وكان مسلكهم فيما يتظاهرون به من الدعوة إلى الله، على ما تحكي كتب التاريخ الإسلامي، واضح البطلان والزييف .

كانوا يتمسكون لفظاً بشعارات الإسلام، ويرتكبون عمداً ما تنكره فرائض الإسلام وشريعته، فلم يصلوا إلى أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر، وتفرقت جموعهم إلى فرق شتى بعضها خرج من الإسلام كما يخرج السهم من الرمية .

تحكي كتب التاريخ أن جماعة من الخوارج التقوا عبد الله بن خباب بن الارت رضي الله عنه، وامرأته حامل متم، فجادلوه وقتلوه وامرأته، وشقوا بطنها عدواناً وظلماً، ووضع أحدهم ثمرة في فمه، فذكّره زميل له بأنّها لا تحل له؟ لأنّها من نخل رجل كتابي، فأسرع الخارجي بلفظ الثمرة من فمه، كأنّه يرى ذلك ذنباً عظيماً أكبر في الإثم من قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق .

وكفى بذلك وما ذكره المؤرخون من تعسفهم في الفهم، وتأويلهم الباطل، وانحرافهم في القصد، دليلاً على مجانبتهم وزيفهم عن الحق، والمنهج الأوسط والأقوم .

لقد ظل اسم الخوارج منذ انحرافهم الأول يطلق على كل فئة ضالة، تخرج عن منهج القرآن وسنة الرسول ﷺ في إصلاح القلوب، وتزكية النفوس، وتنشق عصا الطاعة، وتخرج على ولي أمر المسلمين، وتفارق الجماعة .

صالح الوهبي ، الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي ، في حوار أجرته معه جريدة المدينة في عددها الصادر بتاريخ : 2007/8/12م .⁶⁵

¹ - سورة الأعراف ، آية 96 .

وقد ابتلي العالم الإسلامي في مناطق مختلفة منه بالابتعاد عن منهاج الوسطية في الدعوة، فأضر ذلك كثيراً بانتشار الإسلام، والتزام المسلمين بأحكامه. وهناك من الدعاة من ظنوا أنّ ذلك لا يصلح إلا للتشدد والغلو، واتهام الأولين بالكفر والمروق من الدين، وإباحة دمانهم وأموالهم دون دليل شرعي سليم .

وبدأت تنتشر في العصر الحديث، دعوات و فرق وجماعات من المسلمين ، تجانب الوسطية في دعوتها إلى إصلاح القلوب وتزكية النفوس، وهي تجاهر بعدائهما لأمتهما، وأولياء الأمر فيها، وسائر الناس، وتخلع الطاعة التي يقوم عليها نظام المجتمع وسلامته، وأمن أفرادها وحرمة أموالهم وأنفسهم .

ومع الأسف سرعان ما نسب هذا الغلو والتطرف إلى الإسلام، وكأته منه، فأصبحت كلمة الأصولية- وهي كلمة أوروبية المنشأ والأصل- وصفاً للجماعات الإسلامية التي يعيبيها التشدد والغلو، وتكفير الناس، واستباحة الدماء والأموال، والمسارة إلى الخروج عن الطاعة .

وهذا كله مما يرفضه الإسلام ويدينه، ويرفضه أهل العلم فيه، جرى على ذلك فقه السلف والخلف، منذ ظهر الخوارج في العالم الإسلامي.

وهكذا ساعدت بعض جماعات المسلمين بمسلكتها المجانب للوسطية، المخالف لشرع الله في إصااق مذاهب أهل الضلال بالإسلام، واستيرادها إلى بلاده لتقطع عليها طريق أمنها واستقرارها⁶⁷.

النتائج :

توصلت الدراسة إلى النتائج التالية :

- 1- القرآن الكريم تناول بوضوح مسألة الوسطية واعتنى بها لمكانتها وأهميتها .
- 2- العمل على تنزيل وإسقاط المفاهيم الوسطية على ممارسات المجتمع والدولة؛ وذلك عبر ربط السلوك العملي في المؤسسات العامة والخاصة بقضية التوازن واليسر .
- 3- ضرورة إيجاد نوع من التواصل بين طلاب وطالبات الجامعات في العالم الإسلامي عبر مخيمات ومعسكرات وأنشطة فكرية وثقافية ومسابقات مختلفة للتقريب بين الشباب .
- 4- الاهتمام بمسائل وقضايا التنمية البشرية والعمرانية وتوظيف قدرات وإمكانيات الشباب التوظيف الأمثل لملي الفراغات، وسد كل الطرق التي تؤدي إلى التفتت ومفارقة الجماعة والخروج على القيم والأخلاق التي وضع أسسها الشرع الحنيف .
- 5- الوسطية لها ضوابط واضحة ذكرها العلماء فعلينا التقيد بهذه الضوابط وعدم الخروج عليها

التوصيات :

أولاً : من أهم متطلبات تثبيت مفهوم الوسطية وضمان اندياحها مراجعة الذات من حين لآخر للتأكد من صحة السير على الصراط السوي المستقيم، والنظر في العواقب، فإنّ الخطأ من لوازم البشرية؛ لذلك فالأمر في حاجة إلى مراجعات مستمرة وتواصل غير منقطع بين المؤسسات سيما التعليمية والدعوية والبحثية للتشاور والتفكير في كافة القضايا الحيوية للأمة، ولا بد من اطلاع جمهور الأمة على هذه الجهود المبذولة بل وإشراكهم فيها عبر مؤسساتهم العاملة في مختلف المجالات والأنشطة .

ثانياً : يتوجب على مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي أن تركز بدرجة كبيرة على القضايا المعاصرة التي تلامس حاجات الأمة مباشرة وبصورة يومية سواء كانت قضايا فكرية أو عملية؛ فنحن ندرك أنّ هناك إشكاليات كبيرة في مفاهيم الحرية والعدالة والتنمية البشرية والعمرانية والحقوق والواجبات وقضايا المرأة وقضايا العلاقة بالآخر وقضايا التسليح والطاقة وقضايا التحرر الوطني وما تمليه الأخوة الإيمانية

¹- عبد الله بن عبد المحسن التركي ، الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله ، الطبعة : الأولى 1418هـ- وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية .

من دعم ونصرة للمستضعفين الذين يواجهون الاحتلال والتجويع والقتل والتشريد، والأمثلة في هذا المجال كثيرة .

ثالثاً : يتطلب منا الأمر توفير الإجابات الرشيدة عن للأسئلة التي يطرحها شباب الأمة إذ إنّ التهرب من توفير الإجابات عن هذه الأسئلة أيا كان نوعها سيولد إشكاليات أكبر وأعمق، وسيفتح الباب واسعاً لمجالس فتوى غير مؤهلة وغير مدركة لمقاصد شريعتنا الغراء، ولا مستوعبة للواقع بكل تداخلاته ومكوناته ومآلاته وسيزيد واقعا تعقيداً وتراجعاً .

رابعاً : من الأهمية بمكان وضع ضوابط صارمة جداً فيما يتعلق بمن يتصدى للخطاب الدعوي والفتوى؛ بحيث يتم التأكد من أنه يتمتع بالمؤهلات العلمية التي تجعله أهلاً للدخول في هذا الميدان حتى يتأتى ضبط الخطاب المقدم إلى جماهير الأمة وتوجيهه نحو خدمة القضايا الكلية، والمقاصد العلية .

أخيراً : أمل أن تكون هذه الورقة مساهمة جادة ومفيدة في تأسيس مفاهيم معتدلة ومتوازنة تلتزم بها مؤسساتنا ومجتمعاتنا حتى نغير واقعا إلى واقع أكثر سعادة وأمنا وطمأنينة وتقدماً وتنزيلاً صائباً للدين في الحياة بإذن الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قائمة المصادر والمراجع :

- 1- القرآن الكريم
- 2- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري النهاية في غريب الحديث - الطبعة الأولى دار النشر - دار الكتب العلمية لبنان 1413هـ 1993م .
- 3- ابن حنبل: الإمام أحمد بن حنبل ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- 4- ابن عاشور : محمد الطاهر ، التحرير والتنوير - طبعة الدار التونسية للنشر 1984م .
- 5- ابن عطية الأندلسي: أبو محمد عبد الحق بن غالب ، تحقيق ، عبد السلام عبد الشافي محمد ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - الطبعة الأولى دار النشر - دار الكتب العلمية لبنان 1413هـ 1993م .
- 6- ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق عبد السلام أحمد هارون معجم مقاييس اللغة - طبعة دار الفكر 1399هـ 1979م .
- 7- ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، الطبعة الأولى 1410هـ 1990م دار صادر ، بيروت لبنان .
- 8- البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى ، سنن البيهقي، الطبعة الأولى 1353هـ دار المعارف العثمانية .
- 9- أبو جعفر: محمد بن جرير الطبري (310) جامع البيان عن تأويل القرآن طبعة 1308هـ 1988م دار الفكر بيروت لبنان .
- 10- أبو داوود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق ، سنن أبي داوود ، الطبعة الثانية 1403هـ 1983م مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
- 11- أبو سليمان: عبد الحميد ، أزمة الإرادة والوجدان المسلم ، الطبعة الثانية 1426هـ 2005م ، دار الفكر - دمشق .
- 12- أبو عيسى: محمد بن عيسى بن سورة (279) سنن الترمذي - الطبعة الثانية 1398هـ 1978م مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
- 13- بادحدح : علي بن عمر ، مقومات الداعية الناجح ، الطبعة الرابعة 1422هـ 2002م دار الأندلس الخضراء - جدة .
- 14- أحمد محمد شاكر وأنور الباز: عمدة التفسير عن ابن كثير ، طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع .
- 15- الرازي: الإمام محمد بن أبي بكر ، مختار الصحاح ، طباعة مكتبة لبنان - لبنان 1999م .
- 16- الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد ، المفردات في غريب القرآن الطبعة الثالثة 1409هـ 1998م دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع دمشق .
- 17- الزبيدي: محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني ، تاج العروس من جواهر القاموس طباعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- 18- الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط - بدون تاريخ طبع دار الجيل بيروت .
- 19- الفيومي: أحمد بن محمد بن علي ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير الطبعة الأولى 2006م المؤسسة الحديثة للكتاب
- 20- القرضاوي: يوسف عبد الله ، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف الطبعة السابعة 2000م مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

- 21- القرضاوي: يوسف عبد الله ، كلمات في الوسطية الإسلامية ومعالمها ، الطبعة الأولى 2007م ، المركز العالمي للوسطية – الكويت .
- 22- الزيد: زيد بن عبد الرحمن الزيد ، الوسطية في الإسلام ، طباعة دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض .
- 23- الصلابي: علي محمد محمد ، الوسطية في القرآن الكريم ، طباعة دار المعرفة – بيروت – لبنان .
- 24- العمر: ناصر بن سليمان بن محمد ، الوسطية في ضوء القرآن ، طباعة دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض .
- 25- سيد قطب: في ظلال القرآن ، الطبعة الثانية عشر ، 1406هـ - 1986م دار العلم للطباعة والنشر – جدة ، ودار الشروق - القاهرة .
- 26- فخر الدين الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن ، مفاتيح الغيب ، طباعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- 27- فريد عبد القادر: الوسطية في القرآن الكريم الطبعة الأولى 2007م ، المركز العالمي للوسطية – الكويت .
- 28- نوار بن الشلي : فقه التوسط – مقارنة لتقعيد وضبط الوسطية ، كتاب الأمة العدد 129 ، الطبعة الأولى 1430هـ - 2009م .
- 29- التركي ، عبد الله بن عبد المحسن ، الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله الطبعة : الأولى 1418هـ - وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية .
- 30- جمال الدين محمد محمود ، أول المجتمع الإسلامي ، الطبعة الأولى 1412هـ - 1992م دار الكتاب العربي – القاهرة .
- 31- نجيب الكيلاني ، الإسلام والقوة المضادة ، الطبعة الأولى 1400هـ - 1980م مؤسسة الرسالة – بيروت .
- 32- الخازن ، أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم ، لباب التأويل في معاني التنزيل، الطبعة الأولى 1415هـ ، دار الكتب العلمية – بيروت .
- 33- الزمخشري ، أساس البلاغة ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، ج 2 ، ص 333 ، ط 1 1419هـ - 1998م ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان